٦ ابنُ حوقلَ.. الجغرافيُّ الرَّحَّالةُ المُغامِرُ

عِنْدَما نبحثُ في كتبِ التَّاريخِ، تدهشُنا سيرُ بعضِ الرجالِ العُلَمَاءِ الَّذِيْنَ أفنوا حياتَهم ليضعوا لنا الكُتُبَ والمراجعَ الفريدةَ الَّتِيْ هي اليومَ تشبهُ أرشيفاً مصوَّراً، أو تقريراً يَتَحَدَّثُ عن بلدانٍ وشعوبٍ وطرقِ حياةِ النَّاسِ في زَمانِهِم، حَيْثُ لم تكنْ تتوفَّرُ في تلكَ الأيَّامِ الكاميراتُ ولا أجهزةُ التَّصويرِ المُخْتَلِفةِ الَّتِيْ تسجِّلُ الوقائعَ والأحداثَ، ولولا تلكَ الجهودُ الكبيرةُ لما عَرفنا الكثيرَ مما كانَ يجري في زمانٍ بعيدٍ.

ومن بَيْنِ هؤلاءِ الرجالِ محمد بن حَوْقَلَ البَغْدَادي الموصِلي النصِيبي، أَبُو القاسمِ، الَّذِيْ قضَى حياتَه مسافراً متنقِّلاً من بلدٍ إلى آخرَ، غير عابئٍ بوعورةِ الطَّريقِ ووحوشِ البراري، لكي يتركَ لنا إرثاً يسجلُ للمستقبلِ ما عاينَه من حياةِ الأممِ والشُّعوبِ، وانْشَغَلَ في تدوينِ ما يشاهدُه، إلى درجةِ أَنَّهُ انْشَغَلَ عن كتابةِ سيرةِ حياتِه، وحتى أَنَّهُ لم يحرصْ على تسجيلِ تاريخِ ميلادِه، فظلَّتْ جوانبُ كثيرةٌ من حياتِه مجهولةً محجوبةً عنِ النَّاسِ، لكنَّ ما تركَه من آثارٍ جعلتْ عُلَمَاءَ العالمِ والباحثينَ قديماً وحديثاً يَهْتَمُّونَ بكتبِه، وَقَالُوا: إنَّهُ أشهرُ جغْرَافيٍّ في عصرِه.

كان شغوفاً بمَعْرِفَةِ أخبارِ البلدانِ والوقوفِ على حالِ الأمصارِ، كثيرَ الاستعلامِ والاستخبارِ، محبّاً لقراءةِ الكُتُبِ المؤلَّفةِ، وقد ألَّفَ كتابَ (صورة الأَرْض) الَّذِيْ تَنَاوَلَ فيه أقَالِيمَ بلادِ الإِسْلامِ إقليماً إقليماً وصقعاً صقعاً.

وسجَّلَ التَّارِيْخُ أنَّ ابنَ حَوْقَلَ من أشهرِ الرَّحالةِ والجغْرَافيينَ المُسْلِمِيْنَ الَّذِيْنَ كَتبوا عنِ لبلادِ الإِسْلاميَّةِ شرقاً وغرباً، ونجحَ في وصفِ هذه البلادِ وتدوينِ مشاهداتِه، وما جمعَه من علوماتٍ عنْ عاداتِ هذه المجتمعاتِ وتَقَدُّمِها، كما وضعَ خارطةً لِلأَرْضِ تعدُّ واحدةً من دقِّ الخرائطِ في تاريخِ الجغْرَافيةِ البَشَرِيَّةِ.

لا يُعلمُ بالتَّحديدِ تاريخُ ولادتِه؛ ذَلِكَ أنَّ المعلوماتِ المتوفِّرةَ عَنْهُ قليلةٌ، وهي مستخلَصةٌ ن كتابِه الَّذِيْ كانَ مراجعةً وتطويراً لكتابِ (مسالك الممالكِ) للإصطخريِّ، والَّذِيْ كانَ دورِه مراجعةً لكتابِ (صور الأقَالَيم) لأحمدَ بن سهل البلخي (٩٢١). ويُرجِّحُ البعضُ أَنَّهُ ولدَ في بَغْدَادَ في بدايةِ القرنِ الرابع الهجري.

وكانتْ بَغْدَادُ في تلكَ الأيامِ حاضرةَ العالمِ الإِسْلاميِّ، بل أعظمَ مدينةٍ في العالمِ كلِّه. ي ذَلِكَ الوقتِ نشأَ وتَعَلَّمَ ابنُ حوقلَ، لَكِنَّهُ شُغفَ منذُ بداياتِ فتوَّتِه وشبابِه بقراءةِ التَّارِيْخِ والجغْرَافيا.

ويشيرُ بعضُ الباحثينَ إلى أَنَّهُ ولدَ في نصيبَيْنَ في شمالِ شرقِ الجزيرةِ الفراتيةِ ضمن لحدودِ التركيةِ اليومَ، حَيْثُ تَلَقَّى تعليمَه وهو طفلٌ، مُنْكَبّاً على دراسةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ والأدبِ والتَّارِيْخِ والجغْرَافيا، وشُغفَ منذُ نعومةِ أظفارِه بالسِّيرِ والأخبارِ والتّرحالِ، وعكفَ على قراءةِ أبرزِ الكُتُبِ المعروفةِ في المسالكِ، ومنها كتابُ (المسلك والممالك) لأبي القاسمِ ابنِ خرداذبة، وكتابُ (الخراج وصنعة الكتابةِ) لأبي الفرجِ قدامةَ بن جعفر، وكتابُ (المسالك والممالك) لأبي إسحاق الإصطخريِّ.

تيقَّنَ ابنُ حوقلَ بعد التَّمحيص أنَّ كتبَ المسالكِ المؤلَّفةِ قبلَه لا تفي بالغرضِ المقصودِ،

فاستبدَّتْ به الرغبةُ في دراسةِ الممالكِ والأمصارِ، وأرادَ أنْ يشبعَ ولعَه بمَعْرِفَةِ البلادِ وأحوالِ الشُّعُوْبِ، واتَّخَذَ التِّجَارَة مهنةً له حَتَّى تسهلَ مهمتَه في مَعْرِفَةِ خصائصِ الأقَالَيمِ وطبائعِ الشُّعُوْبِ، والوقوفِ على ميزاتِ النَّاسِ ونوادرِهم وغرائبِهم.

ولشدَّةِ ولعِه بالجغْرَافيا قرَّرَ السفرَ والتنقلَ في البلادِ ليستكشفَ العالمَ الإِسْلاميَّ، ويرويَ ظمأَه في مَعْرِفَةِ جغْرَافيةِ هذا العالمِ، وعاداتِ أهلِه وسكَّانِه، ونُظمِ التَّعْلِيْمِ والثقافةِ والسياسةِ في أَطرَافِ البُلْدانِ؛ لذا تركَ بَغْدَادَ منذُ نحو عام (٣٣١هـ)، وانطلقَ إلى الجانبِ الغربيِّ من الدَّوْلَةِ الإِسْلاميَّةِ في صقليةَ والمغربِ والأندلسِ.

وظلَّ يجولُ في العالمِ الإِسْلاميِّ أكثرَ من ثلاثينَ عاماً متواصلةً، حَيْثُ زارَ كلاً من مصرَ وبلادِ الشامِ والعراقِ والجزيرةِ العَرَبِيَّةِ، ووصلَ إلى أرمينيا وصقليةَ وآسيا وبلادِ البلغارِ والأندلسِ، مروراً ببلادِ شمالِ أفريقيا، كما زارَ نابُولي وباليرمو في إِيْطَالِيا.

شرعَ في كتابةِ كتابِه (صورة الأَرْضِ) بعدَ هذه الرحلاتِ الطويلةِ، والَّذِيْ حفَّزَهُ لكتابةِ هذا الكتابِ المهمِّ في عِلْمِ الجغْرَافيا الإِسْلاميَّةِ أَنَّهُ لم يجدْ كتاباً في هذا الموضوعِ يحوزُ رضاهُ. وبِذَلِكَ أَصْبَحَ من أئمَّةِ الجغْرَافيينَ في ذَلِكَ العصرِ، وأظهرَ في ميدانِ رسمِ الخرائطِ استقلالاً وتفرُّداً، فلمْ يتبعِ الآخرينَ بلا وعيٍ ولا تبصُّرٍ، وضمَّ إلى كتابِه معلوماتٍ جديدةً تعتمدُ على رحلاتِه أو على أقوالِ النَّاسِ، وظلَّ كتابُه مصدراً للمعلوماتِ وثيقاً دأبَ الجغْرَافيينَ الَّذِيْنَ أتوا بعدَه على الرُّجوعِ إِلَيْهِ عدَّةَ قُرُوْنٍ كما يُؤَكِّدُ الباحثونَ.

واشتغلَ ابنُ حَوْقَلَ بالتِّجَارَة، فكانَ من أُوْلَئِكَ التُّجَّارِ الرحالةِ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوا التِّجَارَةَ

وسيلةً لتعرفِ خصائصِ الأقَالَيمِ وطبائعِ الشُّعُوْبِ، وتدوينِ ما يتعرَّفونَه من ميزاتِ النَّاسِ ونوادرِهم وغرائبِهم.

حصرَ اهتمامَه في وصفِ دارِ الإِسْلامِ، ورُبَّما كانَ يتجاوزُ في حالاتٍ معيَّنةٍ نطاقَ العالمِ الإِسْلاميِّ.

وفي الهندِ الْتَقَى بالعالمِ الكبيرِ الإصطخريِّ عام (٣٤٠هـ ـ ٩٥١م)، فأعجبَ به وطلبَ مِنْهُ إصلاحَ كتابِه (المسالك والممالك)، وَقَالَ: «قد نظرتُ في مولدِك وأثرِك، وأنا أسألُك إصلاحَ كتابي هذا حَيْثُ ضَللتُ».

يَقُوْلُ ابنُ حوقلَ: «.. ولقد لقيتُ أبا إسحاقَ الفارسيَّ (الإصطخريَّ)، وقد صوَّرَ هذه الصورةَ لأرضِ السندِ فخلطَها، وصورَ فارسَ فجوَّزَها، وكنتُ قد صوَّرتُ أذربيجانَ الَّتِيْ في هذه الصَّفحةِ فاستحسنَها، والجزيرةَ فاستجادَها».

ولا تَقْتَصِرُ أَهَمّيةُ كتابِه في وصفِ المعالمِ الجغْرَافيةِ، والطرقِ والمدنِ الَّتِيْ رآها في ذَلِكَ الزَّمَنِ فَحَسْب، بل فيما يكشفُ لنا كيفَ كانَتِ الحضارةُ الإِسْلاميَّةُ في القرنِ الرابع الهجري، حضارةً شملتْ مُخْتَلف الأجناسِ والألوانِ والأفكارِ، فعبَّرَ عنها بعمقٍ.

أهدَى كتابَه (صورة الأَرْضِ) في صورتِه الأُوْلَى لحاكم الدَّوْلَةِ الحمدانيةِ في الشَّامِ سيفِ الدَّوْلَةِ الحمدانيِّ الَّذِيْ أُعجبَ به، ثُمَّ ما لبثَ أنِ استقرَّ به المقامُ في أُخرياتِ حياتِه في الأندلسِ، فتُوُفِّيَ ودفنَ بها.

ودخلَ الهندَ وطافَ في مدنها، وفيها الْتَقَى بالإصطخريِّ في سنة (٣٤٠هـ ـ ٩٥١ ـ ٩٥٢م)، وأعجبَ به الأخيرُ، فكلَّفَه بتَنقيحِ كتابِه، واستجابَ ابنُ حَوْقَلَ لهذهِ الرغبةِ، ولَكِنَّهُ

أدخلَ تعديلاتٍ جَوهَريةً على الكتابِ، لا سِيَّمَا الأقسام المتعلِّقَة بمصرَ والمغربِ والأندلسِ وصقليةَ والعراقِ وأرمينيا وما وراء النَّهرِ، وخرجَ في صورةٍ مُخْتَلِفةٍ، فأطلقَ عليه عنوانَ (المسالك والممالك والمفاوز والمهالك) أو (صورة الأَرْضِ)، وعرضَ المسوَّدةَ الأُوْلَى من مصنَّفِه على سيفِ الدَّوْلَةِ الحمدانيِّ، وأتمَّ كتابَه قبل سنة (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م).

وبعدَ ذَلِكَ عَاشَ ابنُ حَوْقَلَ في بلادِ الأندلس زمناً طويلاً في مدينةِ قرطبةَ، في عهدِ عبدِ الرَّحْمَنِ الثالثِ، أي في عهدِ ازدهارِ خلافةِ الأمويينَ في الأندلسِ، وانعكسَ ذَلِكَ فيما أوردَه من معلوماتٍ وافيةٍ عن الحياةِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ بالأندلسِ.

ولخَّصَ ابنُ حَوْقَلَ في كِتَابِهِ سلسلةَ أسفارِه الطويلةِ الَّتِيْ بدأَها في سنة (٣٣١هـ)، واستمرَّتْ نحو ثلاثينَ عاماً زارَ خِلالَها ديارَ الإِسْلامِ من الشرقِ إلى الغربِ، وسافرَ إلى مناطقَ نائيةٍ في آسيا وأفريقيا، وانفردَ بتدوينِ ملاحظاتٍ أثبتَ بها وجودَ عددٍ كبيرٍ من السُّكانِ في تلكَ المناطقِ على عكسِ ما كانَتْ تَقُولُ الدِّرَاسَاتُ الَّتِيْ سبقتْهُ خاصّةً مُؤَلَّفَات الإغريقِ.

كما زارَ مناطقَ أخرَى من أَوْرُوْبَّا مثل بلادِ البلغارِ، وَكَانَ وصفُهُ دقيقاً ومفيداً للرَّحالةِ، وتضمَّنَ كتابُهُ وصفاً مفَصَّلاً للأراضي الَّتِيْ سيطرَ عَلَيْهَا المُسْلِمُوْنَ في إسبانِيا وإِيْطَالِيا وبالأخصِّ صِقليةَ، وَكَذَلِكَ بلاد الرُّوم (الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة)، وسجَّلَ أنَّ عددَ اللُّغاتِ في القوقازِ (٣٦٠) لغةً، وأنَّ اللغتينِ الأذريةَ والفارسيَّةَ هما لغَتا التَّواصلُ للقوقازِ، كما وصفَ كييف، وذكرَ طريقَ بلغار الولغا والخزر.

وفصَلَ في تَنَاوُلِهِ بلادَ الإِسْلامِ، فذكرَ ديارَ العربِ، ورسمَ جميعَ ما تشتملُ عليهِ من الجبالِ والرِّمالِ والطُّرقِ، وما يجاورُها من الأَنْهَارِ. كما ذكرَ بحرَ فارس، والمغربَ

والأندلسَ وصقليةَ ومصرَ والشامَ والجزيرةَ الَّتِيْ بَيْنَ دجلةَ والفراتِ، ثُمَّ أوردَ معلوماتٍ مفصَّلةً عن العراقِ وبلادِ فارس وبلادِ السند وأرمينيا وأذربيجانَ والجبالِ والديلمِ وبلادِ ما وراء النَّهرِ.

وقد أورَدَ في كِتَابِهِ (المفاوز والمهالك والأقَالَيم والبلدان على مرِّ الدُّهورِ والأزمانِ) ـ الَّذِيْ حذَا فيه حذوَ الإصطخريِّ ـ في تقسيمِهِ العالم الإِسْلاميّ إلى عشرينَ إقليماً. كما زادَ عليهِ إقليمينِ، هما إقليمُ الأندلسِ وإقليمُ صقليةَ، وطبائع أهلِها وخواصّ البلادِ في نفسِها، وذكرَ جباياتِها وخراجاتِها، كما ذكرَ الأَنْهارَ الكبارَ واتصالَها بشطوطِ البحارِ، وما على سواحلِ البحارِ من المدنِ والأمصارِ.

وحرصَ على تسجيلِ فترةِ إِقَامَتِهِ الطَّويلةِ في بلادِ الأندلسِ، وكتبَ في مقدِّمةِ دراستِهِ تقريراً عنها؛ بَيَّنَ فيه مظاهرَ ازدهارِ الحضارةِ الأمويَّةِ فيها في عهدِ حكمِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصرِ، وأوردَ معلوماتٍ قَيِّمَةً عنِ الأوضاعِ السِّياسيَّةِ والحياةِ الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ والعسكريَّةِ في الأندلسِ، كما ذكرَ المحاصيلَ الَّتِيْ تُصدِّرُها إلى غيرِها من البلادِ، وبيع الرَّقيقِ الَّذِيْ كانَ يوجَّهُ إلى قصورِ الخلفاءِ والأمراءِ في مصرَ والعراقِ والشَّامِ.

منهجُهُ:

لعلَّ شغفَ ابنُ حوقلَ، منذُ حداثتِهِ بأخبارِ البلادِ، والوقوفَ على أحوالِ الأمصارِ ـ كما يَقُوْلُ البَاحِثُونَ ـ هوَ الَّذِيْ حدَّدَ منهجَهُ. فهذِهِ أمورٌ جعلتْهُ كثيرَ الاستعلامِ والاستخبارِ من المسافرِ والتاجرِ، وقراءةِ الكُتُبِ لتحقيقِ غايتِهِ. وكلُّ ذَلِكَ فسَّرَهُ في كتابِهِ.

وَكَانَ لأسفارِهِ الأثرُ الكبيرُ في كتاباتِهِ، وهذا ما يُؤَكِّدُه بقولِهِ أَنَّهُ كانَ يسألُ الرَّجلَ الصَّادقَ الَّذِيْ يشعرُ بصدقِهِ، وَكَانَ يجمعُ ما يأخذُ مِنْهُ بروايةِ ثانٍ وثالثٍ، مؤكِّداً ذَلِكَ بقولِهِ:

«تتنافرَ الأقوالُ وتتنافى الحكاياتُ، وَكَانَ ذَلِكَ داعيةً إلى ما كنتُ أحسُّهُ في نفسي بالقوَّةِ على الأسفارِ وركوب الأخطارِ، ومحبَّةِ تصويرِ المدنِ وكَيْفِيَّةِ مواقعِ الأمصارِ، وتجاورِ الأقَالَيمِ والأصقاعِ».

ومجالُ الجغْرَافيةِ الإقليميَّةِ في منهجِ ابنِ حَوْقَلَ واضحٌ، يحدِّدُهُ؛ إذْ يَقُوْلُ: «وقد عملتُ كتابي هذا بصفةِ أشكالِ الأَرْضِ، ومقدارِها في الطُّولِ والعرضِ، وأقَالَيمِ البلدانِ، ومحلِّ الغامرِ منها والعمرانِ، ثُمَّ ذكرتُ ما يحيطُ بالأقَالَيمِ من الأماكنِ والبقاعِ، وما في أضعافِها من المدنِ والأصقاعِ، وما لها من القوانينِ والارتفاعِ، وما فيها من الأَنْهارِ والبحارِ».

ويَتَحَدَّثُ ابنُ حَوْقَلَ في مقدِّمتِه عن منهجِه، فيستخدمُ تعبيرَ «صوَّرتُ، أو أعقبتُ ذَلِكَ بصورةِ العراقِ».. ثُمَّ «صوَّرت بلاد السندِ».. ثُمَّ «صوَّرت الجبال وأعمالها»، ممَّا يدلُّ على أنَّ ابنَ حَوْقَلَ اعتمدَ اعتماداً كاملاً على الخرائطِ والمصوَّراتِ. وهذا تقليدٌ اتَّبعتْهُ المدرسةُ الجغْرَافيةُ العَرَبِيَّةُ الإِسْلاميَّةُ في رسمِ «أطلس الإِسْلامِ».

ونصَّ ابنُ حَوْقَلَ على أَهَمّيةِ المصوَّرِ في كتابِه، فذكرَ في المقدِّمةِ قائلاً: «قد جعلتُ لكلِّ قطعةٍ أفردتُها تصويراً يحكي موضعَ الإقليمِ، ثُمَّ ذكرتُ ما يحيطُ به من الأماكنِ والبقاعِ، وما في أضعافِها من المدنِ والأصقاعِ، واستوفيتُ صورَ المدنِ وسائرَ ما وجبَ ذكرُه، وأعربتُ عن مكانِ كلِّ إقليمٍ مما ذكرتُه، واتصالِ بعضِها ببعض، ومقدارَ كلِّ ناحيةٍ في

سعتِها، وصورتِها من مقدارِ الطولِ والعرضِ والاستدارةِ والتربيعِ والتثليثِ، وسائرِ ما يكونُ عليه أشكالُ تلكَ الصورِ».

وَكَانَ وصفُه دقيقاً ومفيداً للمسافرينَ؛ إذ تضمَّنَ كتابُ (صورة الأَرْض) وصفاً مفصَّلاً للأراضي الَّتِيْ سيطرَ عَلَيْهَا المُسْلِمُوْنَ في إسبانيا وإِيْطَالِيا، وبالأخصِّ صقلية، وَكَذَلِكَ بلاد الرومِ (الإمبراطورية البيزنطية).

وَكَانَ في كلِّ مرَّةٍ يطوّرُ كتابَهُ، ويعدِّلُه، ويضيفُ إِلَيْهِ على ضوءِ ما يستجدُّ من معلوماتٍ وملاحظاتٍ كانَ يعايشها ميدانياً. كانَ من الوَاضِح أَنَّهُ إِنَّمَا يبتغي من كتابِه أنْ يكونَ أشبهَ بتقريرٍ يوردُ فيه تفاصيلَ ما يحدثُ فيها بالوقائعِ والأرقامِ، لأَنَّهُ يريدُ أنْ يرسمَ لتلكَ الأراضي صورةً وَاضِحةً.

بعضُ الباحثينَ المعاصرينَ يشبِّهونَ كتابتَه الجغْرَافيةَ المبتكرةَ بكتاباتِ أصحابِ مدرسةِ (الحوليات) الفرنسيةِ، ولا سِيَّمَا في مجالِ ربطِه الوثيقِ للجغْرَافيا الصرفةِ بالاقتصادِ، وهو أمرٌ كانَ يُعْتَبَرُ جديداً في ذَلِكَ الحينِ، حَيْثُ إِنَّ معظمَ الجغْرَافيينَ العربِ، ولا سِيَّمَا منهم كبيرهم الإصطخري؛ الَّذِيْ كانَ أستاذاً لابنِ حوقلَ؛ فقد قَامَ جزءٌ كبيرٌ من عملِ هذا الأخيرِ على تطويرِ كتاباتِ أستاذِه، والاستفاضةِ في تطويرها، عيانيّاً واقتصادياً؛ مستفيداً من أسسِها التَّقْلِيديةِ.

ومع ابنِ حوقلَ، صارَتِ الجغْرَافيا، جغْرَافيا سياسيةً واقتصاديةً بالمعنى الحديث للكلمة. فابنُ حَوْقَلَ كانَ همُّه الأساسُ في كِتَابِهِ أنْ يرسمَ لوحةً وَاضِحةً للمناطقِ الَّتِيْ يَتَحَدَّثُ عنها، صورةً وَاضِحةً وراهنةً أيضاً، بل مطوَّرةً ومعدَّلةً على ضوءِ التغيُّراتِ. وَكَانَ يهمُّه الملاحظاتُ

الاقتصاديةُ الَّتِيْ كانَ يدوِّنُها، بعد معايشتِه إياها، حَيْثُ كانَتْ توفِّرُ له الحقلَ المعرفيَّ المثاليَّ لهذا النمطِ من التَّحليلِ.

وَكَانَ يرجِّحُ المعلوماتِ والمشاهداتِ في إطارٍ عامٍّ، وتتخذُ ملاحظاتُه حول الزراعةِ والصناعةِ وأحوالِ المالِ والتِّجَارَةِ، مكانةً أساسيةً في الصورةِ الَّتِيْ يرسمُها، من دونِ أنْ يفوتَه في معظمِ الأحيانِ أنْ يرسمَ الخلفيةَ التَّارِيْخيةَ ـ والتَّحْلِيْلِيَّةَ بالتَّالي ـ لما يقدمُ من معلوماتٍ؛ رابطاً الأسبابَ بالنتائجِ، ما جعلَه في ذَلِكَ الحينِ، واحداً من الجغْرَافيينَ العربِ والمُسْلِمِيْنَ القلَّةِ الَّذِيْنَ اشتغلوا بدِقَّةٍ ووُضُوحٍ.

قَالُوا عَنْهُ:

ـ قَالَ المُسْتَشْرِقُ الروسيُّ إغناطيوس كراتشكوفسكي في كِتَابِهِ (تاريخ الأدبِ الجغْرَافيِّ العَرَبِيِّ): «يجبُ الاعترافُ بأنَّ ابنَ حَوْقَلَ هو الخبيرُ الأَوَّلُ من بَيْنِ جغْرَافيي هذهِ المدرسةِ ـ مدرسة جغْرَافيي دارِ الإِسْلامِ ـ في شؤونِ إقليمِ المغربِ، ففيها يرد ما لا يقلُّ عن أسماءِ مئتين من قبَائلِ البربرِ، ويصفُ الواحاتِ، ثُمَّ يُوردُ وصفاً مفصلاً للغاية لموقع صقليةَ.

وخارطاتُ ابن حوقل تمثِّل «أطلس الإِسْلامِ» الَّذِيْ يحوي دائماً إحدى وعشرين خارطةً تشملُ العالمَ الإِسْلاميَّ من خوارزمَ وبخارى وسمرقندَ في أقصى الشرقِ حَتَّى الأندلسِ في أقصى الغربِ».

ـ ويذكرُ الدوميلي في كِتَابِهِ (العِلْم عِنْدَ العربِ وأثره في تطويرِ العِلْمِ العالميِّ): «إن ابنَ حَوْقَلَ نبغَ في عِلْمِ الجغْرَافيا؛ لذا طلبَ منه الإصطخريُّ معاصرُه ـ وهو عالمٌ في الجغْرَافيا أيضاً ـ تنقيحَ كتابه (المسَالك والممَالك)، وقد تميز كتابُ ابنِ حَوْقَلَ (صورة الأَرْض) بأَنَّهُ

اشتملَ على خريطةٍ خاصةٍ لكلِّ إقليمٍ تحدَّثَ عنه، وهذه الخرائطُ يمكنُ أن تُسمَّى دونَ مبالغةٍ «أطلس العالم الإِسْلاميِّ»».

ـ قَالَ عَنْهُ الباحثُ المعاصرُ إبراهيمُ العريس: «ابنُ حوقلَ، جغْرَافيٌّ مارسَ عملَه ميدانياً، وعرفَ بقوةِ ملاحظتِه، فهو رجلٌ من طرازٍ رفيعٍ واستثنائيٍّ في ذَلِكَ الحينِ. ولا نعرفُ الكثيرَ عن حياتِه الشخصيةِ. تطغَى على كتاباتِه الدِقَّةُ والتَّفاصيلُ الآنيةُ والحيويةُ، ولا سِيَّمَا على كتابِه الأساسيِّ (المسَالك والممالك) أو (صورة الأَرْضِ) الَّذِيْ اشتغلَ عليه طوالَ حياتِه، وأعادَ صياغتَهُ ثلاثَ مراتٍ على الأقلِّ؛ مرةً قبلَ العام (٣٥٦هـ)، وأخرى في العَام (٣٦٧هـ)، وثالثَةً أَخيرةً حوالي العام (٣٧٨هـ)».